الموالي في الدولة الحفصية. دورهم السياسي والعسكري
(603-932هـ/1192-1526م)

سالم أبوالقاسم محمد غومة

قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم بدر – جامعة الزنتان

رقم الهاتف0944767310

salem.ghoma@uoz.edu.ly

المخلص:

يتناول البحث دراسة فئة من المجتمع الحفصي، كان لها دورها في تاريخ الدولة الحفصية **(603-932هـ/1192-1526م)**، هذه الفئة هي الموالي، الذين استكثر منهم سلاطين الدولة، وذلك من أجل تولى مهام عسكرية، وبفضل خبرتهم وتفانيهم في العمل أنيطت إليهم مهام سياسية وحصلوا على ثقة الحفصيين، وأصبح لديهم دور بارز في قيادة الجيش والاسطول، وتولوا إدارة المدن الحفصية، وقاموا بمحاربة الفساد المالي، كما وقفوا في وجه المعارضين للسلطان، وكان لهم دور في بيعة السلاطين، ورعاية أبنائهم، وتنصيب وعزل الموظفين، ومحاسبة المقصرين منهم. وبالطبع كل ذلك أسهم في استفحال نفوذهم مما أدى إلى استبدادهم داخل الدولة.

الكلمات المفتاحية: الحفصية– تونس –الجيش– المرتزقة– الموالي.

Abstract

The research deals with the study of a category of Hafsid society, which had a role in the history of the Hafsid state (603-932 AH / 1192-1526 AD), this category is the loyalist, who abounded them sultans of the state, in order to assume military tasks, and thanks to their experience and dedication to work entrusted to them political tasks and obtained the confidence of the Hafsids, and they have a prominent role in leading the army and fleet, and took over the management of the Hafsid cities, and they fought financial corruption, as they stood in the face of opponents of

the Sultan, and they had a role in pledging allegiance to the sultans, and caring for their children, Installing and dismissing employees, and holding negligent ones accountable. Of course, all this contributed to the exacerbation of their influence, which led to their tyranny within the state.

Keywords: Hafsid - Tunisia - army - mercenaries - loyalist.

المقدمة:

تُعد الدولة الحفصية من ضمن الدول التي ظهرت ببلاد إفريقية في العصر الوسيط، والتي تميزت بتطورها في العديد من الجوانب الحضارية، ولاسيما السياسية والعسكرية منها، ولعل من أسباب ذلك انفتاح سلاطين الدولة على غيرهم من العناصر الاجتماعية غير العربية، ودون تمييز بينهم في مؤسسات الدول.

ونظرا لأن تلك العناصر ولاسيما الموالي كانت لهم خبرة ودراية وتفاني في المهام التي أسندت لهم نالوا ثقة السلاطين، واصبحت لهم مكانة ونفوذ داخل البلاط الحفصي، فعلى عاتقهم وقعت قيادة الجيوش، وإدارة المدن الحفصية، بل أصبح لهم يد في تمكين وحرمان بعض الشخصيات الحفصية من الحكم، كما كان لهم دور في محاربة الفساد المالي داخل الدولة، مما زاد من تمسك السلاطين بهم.

أهداف البحث:

يهدف البحث الى الوقوف على الدورين السياسي والعسكري للموالي داخل الدولة الحفصية منذ النشأة وحتى السقوط.

أهمية البحث:

يُعد الموالي من الفئات التي لحقها التهميش في ابراز تاريخها في المصادر التاريخية. حقيقة هذه العناصر عاشت في أفضل احوالها لأنها في الغالب كانت على علاقة وطيدة بالسلطان الحفصي. ولكن الكتابات التاريخية لم تعطيها حقها في إبراز دورها. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث باعتباره محاولة لم شتات ما وجد بين

ثنايا المصادر من معلومات، وتشكيل صورة لدورهم السياسي والعسكري داخل الدولة الحفصية.

حدود الدراسة:

تتمثل حدود الدراسة البشرية في عنصر الموالي، اما الحدود الجغرافية فهي تتمثل في بلاد إفريقية[1]، اما عن الحدود الزمنية فهي تتناول تلك الفترة التي امتد فيها تاريخ الدولة الحفصية **(603-932هـ/1192-1526م)**.

إشكالية البحث

تتبلور الإشكالية في الدور الذي قام به الموالي داخل الدولة الحفصية؟ وما أثر ذلك على الناحية السياسية والعسكرية؟

البحوث والدراسات السابقة

بناء على ما قام به الباحث من البحث في أوعية المعلومات التاريخية سواء على شبكة المعلومات الدولية أو على رفوف المكتبات بخصوص عنوان هذه الدراسة، لم تقع عين الباحث على عناوين مشابهة أو دراسات قريبة منه، باستثناء دراسة المؤرخ برنشفيك، روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، فلقد كانت له إشارات بخصوص الموالي، ولقد استفاد منها الباحث في العديد من الاضاءات بخصوص بحثه.

بداية وقبل الخوض في الكتابة عن هذا البحث يستوجب توضيح من هم الموالي؟ وما أصل تسميتهم؟ مصطلح الموالي في هذا البحث يشمل تلك العناصر النصرانية التي تتمتع بكامل حريتها، أي أولئك الموالي الاحرار والذين كانت لهم علاقة وطيدة

[1] كانت تشتمل إفريقية وهي منطقة نفوذ الدولة الحفصية على البلاد التونسية وطرابلس وقسنطينة من بلاد الجزائر . عامر، أحمد . الدولة الحفصية، دار الكتب الشرقية، تونس، 1972 . ص21 .

بسلاطين الدولة الحفصية، وأصبح لديهم نفوذ في مفاصلها. أي لا يشمل البحث الموالي الرقيق أو العبيد الذين تُمارس عليهم العبودية مما جعلهم مغلوبين على أمرهم.

يقول المؤرخ برنشفيك عن الموالي أنهم من المسلمين الجدد من أصل مسيحي، ويطلق عليهم مصطلح علوج أو مماليك[2]. والعلج في معجم اللغة يعنى الرجل الكافر ذو البنية الجسمية الضخمة وله لحية[3]. ومن التسميات التي أطلقت على الموالي تسمية الخصي وذلك كما جاء عند ابن خلدون أثناء تناوله لرجل من الموالي يقال له الخصي كافور[4]، ومن المرجح أن سبب تسمية هذا المولي يرجع إلى تلك العملية التي يتم بها إزالة خصى الموالي.

الموالي مع تنوع البلاد التي استجلبوا منها إلا أنهم لا يتعدوا صنفيين، وهما عبيد تم عتقهم ودخلوا الإسلام و مسيحيون احرار اعتنقوا الإسلام، وكلا الصنفين يحمل اسم موالي[5].

استكثر عدد من سلاطين الدولة الحفصية من الموالي، ويُعد السلطان أبو زكريا من أبرزهم لكثرة الأعداد التي تم جلبها في زمنه[6]، ولعل سبب ميولهم للموالي عن خيرهم من الأجناس راجع إلى أن أغلب السلاطين يجرى في أجسامهم دماء الموالي

---

[2] برنشفيك، روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن13 الى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، ج1، دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص484.

[3] ابن منظور، لسان العرب، مج 4، تحقيق عبدالله علي الكبير وأخرون، دار المعارف، القاهرة، ص3065

[4] ابن خلدون، عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000م.ص402.

[5] برنشفيك، مرجع سابق، ص485.

[6] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6،ص402.

لأن أمهاتهم كنّ غير عربيات، وكما قال عنهم الزركشي من أم رومية[7]. ولهذا لا نستبعد وجود بعض الود بين السلاطين والموالي والذي عمّق العلاقة بينهما. كما أنه من المرجح تفضيل الحفصيون لغير العناصر الحفصية راجع إلى دواعي أمنية، فذلك الحفصي سيكون طامع في الحكم، وبالتالي يشكل خطر على السلطان.

فمن خلال البحث في أبرز المصادر والمراجع تم العثور على معلومات مهمة تبرز دور الموالي، حيث تبين أنهم كانوا يشكلون شريحة ذات مكانة كبيرة داخل الدولة الحفصية، وذلك للدور الفعّال الذي يقومون به. ومن هنا سيتم تناول ذلك الدور في المباحث الأتية:

- **المبحث الأول: أبرز مهام الموالي داخل الدولة الحفصية:**
- **المطلب الأول: قيادة الجيش والأسطول:**

تقلد الموالي العديد من المناصب داخل الدولة الحفصية، لاسيما في الجانب العسكري، واصبحوا يشكلون عدد كبير من الجند والقادة. يقول الوزان أن ملك تونس يمتلك تقريبا 1500 جندي نصراني، وهؤلاء الجند اغلبهم من الموالي الذين اعتنقوا الإسلام، ولكل واحد من هؤلاء مرتب له ولفرسه نظير ما يقدمونه من خدمات عسكرية[8]. يقول برنشفيك عن هؤلاء الموالي العسكريين : " هناك عنصر عتيد ... وهو يتكون من عدد مرتفع من النصارى المعتنقين للإسلام، والذين هم في معظمهم

---

[7] المسعودى، جميلة مبطى، المظاهر الحضارية في دولة بني حفص منذ قيامها سنة 661هـ وحتى سنة 893هـ، رسالة ماجستير، جامعة ام القري،2000م، ص144. كما يمكن مراجعة الزركشي، ابي عبدالله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماظور، المكتبة العتيقة، تونس،1966م، ط2. في حديثه عن كل سلطان سوف نجد هذا المصطلح.

[8] حسن، الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983م. ص80

من قدماء الرقيق المعتّقين، ولقد تخرج من صفوفهم عدد كبير من القواد"[9]. ويقول العمري أنه حوالي ألف فارس من المماليك الأتراك كان قد تم شرائهم من مصر في زمن الدولة الحفصية[10]، حيث أصبحوا يشكلون جزء من قوتهم العسكرية. وكذلك نجد عدد كبير من الجند ذوي الأصول الفرنجية يشكلون الفئة المقربة من السلطان الحفصي[11]، ومن هنا أصبحوا يزاحمون رجال الدولة الحفصية في الجانب العسكري[12].

تولي عددا من الموالي مهام عليا داخل الجيش الحفصي، من أبرزها القيادة العامة، حيث كانت للمصادر التاريخية إشارات واضحة وصريحة لذلك، فلقد تولى القائد ظافر قيادة الجيش الحفصي أيام السلطان أبو عبدالله محمد المستنصر (647-675هـ/1249-1277م)[13].

وفي زمن السلطان أبو البقاء خالد الأول (709-711هـ/1309-1311م) تولى المولى ظافر المعروف ظافر الكبير قيادة جيشه[14]. وفي زمن السلطان أبوبكر بن يحيى بن إبراهيم (718-747هـ/1318-1346م) قام بتولية قيادة الجيش الحفصي بمدينة بونة الى المولي ظافر السنان[15]. وكذلك نجد حاكم قسنطينة الأمير ابى

---

[9] مرجع سابق، ج1، ص85.

[10] العمري، ابن فضل الله شهاب الدين، تحقيق كامل سليمان الجبوري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، ج4، دار الكتب العربية، بيروت، ص79.

[11] العيد غزالة، مساهمة العنصر الأندلسي في الجيش الحفصي، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 3، ع 1، جوان 2019م. ص54.

[12] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص402.

[13] الزركشي، مصدر سابق، ص33

[14] الزركشي. مصدر سابق، ص61

[15] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص495.

عبدالله محمد ابن السلطان أبي بكر يقوم بتعيين المولى نبيل قائدا لجيشه بالمدينة، كما كان ضمن الوفد الذي رافق الامير ابى عبدالله محمد عند زيارة ابيه السلطان ابى بكر بتونس سنة 734هـ/1333م[16]. استمر الموالي في تولي مهام قيادة جيش قسنطينة وإدارتها حتى بعد وفاة الأمير سنة 738هـ/1337م، حيث خلفه أبنائه في إدارة قسنطينة ونظرا لصغر سن اكبرهم ابى زيد عبد الرحمن قام جدهم السلطان أبوبكر بن يحيى بن إبراهيم بتكليف أحد مواليهم والمسمى نبيل بالقيام بمهمة القيادة والإدارة فيها وذلك لثقته فيه[17].وفي سنة 752هـ/1351م عندما قرر الأمير أبو زيد عبد الرحمن التوجه من قسنطينة الى تونس بغرض السيطرة عليها كلف المولي ميمون بقيادة هذا الجيش[18].

كما قام السلطان أبو فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1433م) بتعيين المولي نبيل بقيادة الجيش الحفصي بمدينة قسنطينة[19]. وفي سنة 804هـ/1401م عزل المولي نبيل عن قيادة الجيش ونصب مكانه المولي ظافر[20].

كذلك في سنة 845هـ/1441م تولى المولي نبيل – والذي يطلق عليه الزركشى في هذا الموضع اسم ابى الفهم – قيادة الجيش الحفصي والذي ارسله السلطان أبو عمرو عثمان بن محمد (839/894هـ/1435-1488م) الى مدينة نفطة، هذه

[16] ابن القنفذ، أبو العباس أحمد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبدالمجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968م، ص166.

[17] الزركشي، مصدر سابق ص75. ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص505.

[18] ابن قنفذ، مصدر سابق، ص180.

[19] الزركشي، مصدر سابق، ص119. ابن قنفذ، مصدر سابق، ص195.

[20] ابن قنفذ، مصدر سابق، ص198.

المدينة التي حاول رجلا من بنى خلف يقال له ابى زكريا الانفصال بها عن الحكم الحفصي، ولقد تم الاستيلاء عليها بعد قتل الكثير بها[21].

كما تولى المولى نبيل في سنة 850هـ/1446م قيادة الجيش الحفصي بغرض انقاذ بجاية من خطر أحد الامراء وهو ابى الحسن والذي حاول السيطرة عليها.[22]. وفي سنة 853هـ/1449م نجد هذا المولي يتولى قيادة الجيش الذي اتجه الى مدينة تقرت[23] زمن السلطان أبو عمرو عثمان، هذه المدينة التي سيطر عليها أحد المشائخ ويسمي يوسف بن حسن، والذي رفض دفع جبايتها للسلطان الحفصي، وأثناء حصارها برزت مهارة جند الموالي العسكرية حيث تمكن أحدهم من اختراق سور المدينة ودخل اليها[24].وبالطبع هذا يبين لنا ما يقوم به الموالي من عمليات فدائية لاختراق المدن العسكرية.

تولى كذلك الموالي قيادة الجيوش التي جُهزت من أجل حرب النصارى، ففي سنة 835هـ/1431م عين السلطان أبو فارس عبد العزيز المولي نبيل على الجيش الحفصي الذي استُنفر للهجوم على جربة بعد سيطرت النصارى عليها.

غير أن بعض قادة الجيش من الموالي توسع في صلاحياته مما أغضب السلطان، والذي كانت عواقبه سيئة عليهم، وعلى سبيل المثال بعد موت السلطان ابى بكر تولى حكم تونس ابنه السلطان أبو حفص عمر سنة 747هـ/1346م بعد صراع مع

---

[21] الزركشي، ص140

[22] الزركشي، ص142.

[23] وهي مدينة بناها النوميديون على جبل، تبعد على جنوب البحر المتوسط خمسمائة ميل، تستورد هذه المدينة القمح من قسنطينة وذلك مقابل التمر، تقع تحت حكم حاكم تونس. الوزان، مرجع سابق، ج2، ص136.

[24] الزركشي، مصدر سابق، ص143.

أخيه ابى العباس. ولقد قام أبو حفص بمطاردة كل من له علاقة بأخيه ومن هؤلاء الحاجب ابن تافراجين الذي هرب الي قسنطينة، حيث قبض عليه من اجل تسليمه للسلطان ابى حفص عمر، ولكن نبيل كحاكم وقائدا لهذه المدينة قام بإطلاقه سراحه[25]، مما يعد مخالف لأوامر السلطان. كذلك قيام المولي نبيل بالتدخل في حكم القضاء في إحْدَى القضايا، والذي يعد مخالفا للشرع، وبالتالي قام السلطان أبو فارس عبد العزيز بعزله عن قيادة الجيش الحفصي بمدينة قسنطينة ونصّب مكانه المولي ظافر في سنة 804هـ/1401م[26].

واستكمالا للحديث عن القيادة، لم تنحصر المهام العسكرية للموالي في قيادة الجيوش فقط، بل شملت كذلك قيادة الاسطول الحفصي، وكان ذلك في الغالب يحدث عند العمليات العسكرية البحرية والتي الغاية منها حصار الجزر بهدف الاستيلاء عليها واخضاعها للنفوذ الحفصي، وذلك كما حدث سنة 832هـ/1428م عندما قاد المولي رضوان الاسطول المتوجه الى جزيرة مالطا زمن السلطان أبو فارس عبد العزيز[27].

- **المطلب الثاني: إدارة المدن الحفصية:**

تولى الموالي إدارة بعض المدن التابعة للدولة الحفصية، ومثل ذلك المولى مسرور الذي كلفه السلطان ابو بكر بن يحيى بن إبراهيم بولاية بونة، رغم عدم درايته بالسياسة وإدارة الحكم، فلقد كان يتميز بغلظته وشدته في المعاملة[28].

---

[25] ابن قنفذ، مصدر سابق، ص169.

[26] الزركشي، مصدر سابق، ص119. ابن قنفذ، مصدر سابق، ص195. 198.

[27] الزركشي، مصدر سابق، ص129،127.

[28] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص495.

كما تولي المولي محمود سنة 833هـ/1429م إدارة شؤون مدينة قسنطينة بعد تكليفه من السلطان أبو فارس عبد العزيز[29].

كذلك تولي المولي أبو النعيم رضوان سنة 834هـ/1430م إدارة مدينة بجاية زمن السلطان أبو فارس عبد العزيز، وذلك بعد عزل السلطان لابنه المعتمد عن حكمها[30]. وربما يرجع ذلك الى عدم ثقته في قدرات ابنه أو خوفا من أن يخطط للانفصال بها، ولكن ما نحن على يقين به أن ما حدث مؤشر لما وصلت له ثقة سلاطين الدولة الحفصية في مواليهم.

كما تولي في سنة 853هـ/1449م حكم مدينة باجة المولي نصر الله الذي يقول عنه الزركشي انه من العلوج الاحرار[31]، فهو ابن القائد نبيل، واحد أبرز قادة جيوش السلطان أبي عمرو عثمان. تولي هذه المهمة عقب مقتل قائد باجة في العملية الفدائية لاقتحام أبواب المدينة التي سبق وان ذكرنا أنه ساهم فيها أحد جند الموالي. وما نلاحظه هنا أن السلطان لم يسلم المدينة لاحد اقاربه بل نصّب عليها المولي نصر الله[32].

وعلى ما يبدو أن الموالي لم تنحصر تجاوزاتهم للصلاحيات في أثناء قيادة الجيش فقط، بل شملت كذلك فترة حكمهم للمدن الحفصية، فلقد سجلت مواقف عليهم

---

[29] الزركشي، مصدر سابق، ص127.

[30] الزركشي، مصدر سابق، ص.128.127

[31] العلوج الأحرار ربما يقصد بها أولئك الموالي الذين لم يتم أسرهم أو استعبادهم، وأنهم انخرطوا في خدمة السلطان الحفصي. ويطلق عليهم المرتزقة.

[32] الزركشي، مصدر سابق، ص144. 147.

تمثلت في نهبهم لأملاك وأموال عامة الناس، مما أدى إلى ثورة الأهالي عليهم وكان مصير بعض الموالي القتل نتيجة لمدافعة العامة على أموالهم [33].

- **المطلب الثالث: القضاء على المعارضين.**

اسند سلاطين الدولة الحفصية إلى مواليهم مهمة إخماد خطر المعارضة، فعندما تولى أبو عبد الله المستنصر الحكم وتحديدا في سنة 648هـ/1250م كلّف بالوزارة محمد بن ابي مهدى الهنتاتى، وهذا الأخير دبر مؤامرة انقلابية على المستنصر بحجة صغر سنه، وكلف شخصية أخرى بمهام الحكم ، وسانده في ذلك ابن عم المستنصر، وهو محمد اللحياني، ولكن ما منعه دون تحقيق ذلك الموالي المحيطون بالمستنصر، والذين من المرجح كانت أهدافهم تتأرجح بين حماية السلطان، والخوف على مصالحهم، وكان على راسهم المولي ظافر، وبالفعل تمكن ظافر من اخماد مؤامرة ابن مهدي وقام بقتله، وعلى ما يبدوا من خلال تسلسل الأحداث أن الموالي استبدوا في تصرفاتهم مستغلين في ذلك قربهم من السلطان، فلقد بالغ القائد ظافر في الانتقام من المعارضين، ففي حادثة ابن مهدي لم يكتف ظافر بقتله بل امتد سيفه الى قتل أقارب السلطان الذين كانت لهم علاقة بالمؤامرة وهم محمد اللحياني وأبو إبراهيم وابنيهما، مما تسبب في تعكر صفو العلاقة بينه وبين المستنصر مما كان سبب في هروبه نحو مضارب قبائل الدواودة العربية[34].

وكذلك استخدم السلطان المستنصر كبير الموالي هلال في القضاء على أبي العباس الليانى – نسبة إلى مدينة لُيانة – الذي اتهم بالتخطيط للثورة بالمهدية ضد السلطان[35].

---

[33] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص495.

[34] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص402. 403

[35] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص420.

كما نلاحظ في زمن السلطان أبو البقاء خالد قام بتكليف المولي ظافر بعدة مهام منها القضاء على الاضطرابات التي حدثت في العديد من المدن الحفصية [36].

وفي زمن السلطان أبو بكر سنة 713هـ/1313م نجده يقوم بتكليف مواليه بقتل عبد الله بن ثابت وأخيه حسن بوادي القطن، هاتين الشخصيتين اللتين شكلتا خطر على حكم السلطان في تلك السنة. وكذلك اسند الى مولاه نجاح مهمة اغتيال علي بن عمر صاحب قسنطينة الذي تخوف منه السلطان أبوبكر؛ لأنه طامع في الانفصال، والانفراد بحكم المدينة[37].

وفي سنة 747هـ/1346م عندما دخل أبو العباس احمد إلى تونس واستولى عليها من حاكمها ابى حفص عمر، فقام الأخير برد الهجوم ليلا واستعاد المدينة منه، وعندما حاول أبو العباس الهروب اعترضه مسرور أحد موالي ابى حفص وقام بقتله، وبالتالي كان لهذا المولي دور في القضاء على فتنة ابى العباس أحمد[38].

كانت في بعض الأحيان عمليات القضاء على المعارضين لها نتائج سلبية على منفذيها من الموالي، هذه النتائج التي يغذيها الصراع والتنافس بين الموالي أنفسهم من أجل الانفراد بحظوة السلطان. فبعد حادثة مقتل محمد اللحياني على يد ظافر سابقة الذكر، استغل المولي هلال هذه الحادثة ليشعل في صدر السلطان المستنصر نار الانتقام من ظافر، وبالفعل اقنع هلال السلطان بضرورة معاقبة ظافر على ما قام به في حق أقاربه، ولكن سرعان ما وصل خبر المكيدة إلى ظافر، وبالتالي لاذ بالفرار إلى قبائل العرب للاحتماء بها. وهنا لانستبعد الهدف من هذه المكيدة هو

---

[36] الزركشي. مصدر سابق، ص61

[37] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص420. 472، 476، 485.

[38] ابن الشماع، أبوعبدالله محمد بن أحمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م.، ص93.

طمع هلال في تلك الامتيازات التي كان يتميز بها ظافر زمن المستنصر. وخلاصة ما حدث أن هلال تحقق له ما كان يتمناه عند المستنصر حيث أصبح مقربا إليه[39]. ويقول ابن القنفذ عن هلال أنه كان كريم وشجاع، ويشفق على الفقراء والمساكين ويتميز بالإحسان، يمتلك من الديار ست[40]، وتقديرا له كتب ابن عصفور كتابه في النحو المسمى الهلالية نسبة له ولقد فرح السلطان المستنصر بهذا العمل[41]، ويجب أن نضع في اعتبارنا ان ابن القنفذ في بداية كتابه قد اقر أنه لن يكتب الا ما يسر السلطان الحفصي، وبالتالي قد يكون تجاهل الجانب القاتم من سيرة هلال والتي لم ينكرها الزركشي.

- **المطلب الرابع: محاربة الفساد المالي داخل الدولة:**

كُلِف الموالي بمراقبة أصحاب المناصب المهمة وخاصة التي له علاقة بالجانب المالي، لأن هذه المناصب من المتوقع أن تتسبب في فساد ذمم القائمين عليها، سواء بتفشي الرشاوي او اكتناز الأموال، والتي قد تكون سببا في الإطاحة بالسلطان الحفصي، ويعد منصب الخطط المخزنية من المناصب التي يقع تحت يد صاحبها التصرف في كم هائل من أموال الدولة، وبالتالي عملية مراقبتها كانت يجب أن تكون بشكل دقيق، وبإشراف شخصيات يتم تكليفها من قبل السلطان، ولقد كان الموالي من ضمن أولئك الثُقات، ورغم ندرة الأمثلة على هذا الأمر إلا اننا نكتفي بما تم في عهد المستنصر، الذي تولى مواليه مهمة القبض على من يسيئون استخدام مناصبهم وخاصة تلك التي تتعلق بالأمور المالية، فلقد كلف هذه السلطان مواليه

[39] الزركشي، مصدر سابق، ص33.

[40] هذا دليل على الغِني الفاحش الذي بلغه بعض الموالي.

[41] ابن القنفذ، مصدر سابق، ص127.

بالقبض على ابى العباس الليانى والذي على ما يبدوا أنه أساء استخدام منصبه المسمى بالخطط المخزنية[42].

- **المطلب الخامس: شراء الذمم لدخول المدن**

قام الموالي بمهمة شراء الذمم بهدف تمهيد الطريق للدخول إلى المدن بأبسط السبل، ونقصد هنا بالتمهيد هو قيامهم بشراء ذمم القائمين على تلك المدن من ضعاف النفوس، وذلك من خلال دفع الأموال لهم، حتى يفتحوا لهم أبواب المدينة ويتم اقتحامها، فهذا ما فعله المولي فارخ مع الأمير ابى عبد الله ابن الأمير ابى زكريا، فعند حصار الأخير لبجاية التي كان يتحصن بها أبو الفضل (من أقارب السلطان) . قام فارح بالتواصل مع من كان لهم علاقة به واعطاهم الأموال مقابل فتح المدينة، وبالفعل تم فتح أحد أبوابها المسمى باب البر[43]. ولا نستبعد أن تلك الأموال التي يتم بها شراء الذمم يكون مصدرها من سلاطين الدولة الحفصية، وما على الموالي إلا وضع الخطط لذلك وتنفيذها.

- **المطلب السادس: مبايعة السلاطين ورعاية أبنائهم**

كان للموالي دور في بيعة سلاطين الدولة الحفصية، فعن طريق هذه البيعة يتم تمكين السلطان من الحكم. فالحفصيون منحوهم ذلك الحق، ولم يميزوهم كموالي وغرباء، وفي الوقت نفسه كان لهؤلاء مكانة داخل الدولة الحفصية ولهم تأثير في الرأي السياسي، وبالتالي السلطان المحظوظ هو من يكون قد نال رضاهم، فلقد قام المولي كافور زمن السلطان ابي زكريا بمساندة ولى العهد ابى عبد الله المستنصر (647/675هـ/1249-1277م) بعد موت ابيه أبو زكريا، حيث قام

[42] الزركشي، مصدر سابق، ص36

[43] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص528.

بالقبض على الشخصيات المهمة، والتي كانت مُقربة من ابيه بغرض الحصول منهم على البيعة مرة ثانية، وكذلك بعثه المستنصر لأخذ البيعة من المدن المجاورة، وبالفعل توافد عليه أصحاب تلك المدن والاقاليم معلنين بيعتهم[44].

وكذلك كان للمولى نصير وهو خادم السلطان الواثق دور كبير في تمكين الدعي[45] أحمد بن مرزوق (681/683هـ/1282–1284م) من حكم الدولة الحفصية. فعندما قام السلطان أبو إسحاق إبراهيم الأول (678/681هـ/1279–1284م) سنة 679هـ/1280م بقتل عمه الواثق وأبنائه الثلاثة الفضل والطاهر والطيب[46]، هرب المولي نصير لكونه من المقربين الى الواثق وأبنائه بل واكثرهم وفاءا لهم، واقام عند عرب دباب التقى سنة 681هـ/1283م بالدعي الذي ادعى أنه الفضل ابن الواثق وهرب من السجن وأخبر المولى نصير بذلك، ونظرا لشبهه بالفضل ابن الواثق أو لمخطط بينهما صدقه واقنع بني دباب بالدعي. وبفضل هذا الاتفاق أصبح الدعي من ضمن السلاطين الذين حكموا الدولة الحفصية لفترة من الزمن[47]. وكذلك عند مبايعة ابى البقاء خالد الثاني (770/772هـ/1369–1370) بالحكم تولى اخذ البيعة له مولاه منصور وذلك سنة 770هـ/1369م[48].

---

[44] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص402.

[45] اسمه الحقيقي أحمد بن مرزوق ابن ابي عمارة المسيلي، ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص446. ابن قنفذ، مصدر سابق، ص141.

[46] ابن الشماع، مصدر سابق، ص76. نلاحظ عند الرجوع لابن الشماع انه لم يصرح بقتلهم واكتفى بكلمة قضوا نحبهم بعكس ابن خلدون والزركشي اللذان صرحا بما حدث بكلمات واضحة.

[47] الزركشي، مصدر سابق، ص45.ابن الشماع، مصدر سابق، ص80.

[48] الزركشي، مصدر سابق، ص104.ابن الشماع، مصدر سابق، ص106– 107.

أما بالنسبة لرعاية أبناء السلاطين فلقد اهتم الموالي بهم، فهاهو المولى فارح يقوم بحضانة أبا عبد الله محمد ابن الأمير ابى زكريا ابن السلطان ابى بكر يحيى وحاكم بجاية وذلك بعد وفاة الأخير، حيث كان أبو عبد الله صغيرا في السن، ومع مرور الوقت أصبح ذراعه الأيمن عندما اختاروه عامة الناس اميرا عليهم ببجاية خلفا للأمير ابى حفص ابن السلطان ابي بكر يحيى[49]. وكذلك نجد المولي نبيل يمكن الأمير ابي العباس أحمد وأخوه ابي زيد عبد الرحمان من قسنطينة التي استلمها من عمهما الفضل بعد تنازله عليها بناء على اجتماع مع أولى الرأي من عقلاء وفقهاء بالمدينة وذلك سنة 750هـ/1349م[50]. وحقيقة لا ندرى هل هذه الرعاية هي وفاء لسلاطين الدولة الحفصية ممن أحسنوا معاملة الموالي أما انها صلة قرابة وخاصة أن عدد من السلاطين زوجاتهم من أصول الموالي، اما ان أبناء الامراء والسلاطين تعتبر ورقة رابحة يبرزها الموالي وقت الحاجة عندما يحين تغيير امير او سلطان معين، واعتقد أن الامر الأخير هو ما نرجحه لان الأمثلة منه كثيرة.

- **المبحث الثاني: استبداد الموالي على السلاطين والعامة**

استغل العديد من الموالي نفوذهم السياسي والعسكري داخل بلاط الحكم الحفصي، هذا النفوذ الذي جاء نتاج المهام التي يؤدونها لسلاطين الدولة الحفصية، وبالتالي استحوذ الطمع وحب السيطرة عليهم، وكان سبب في الاستبداد على السلاطين بل وطال العامة على حد سواء، فلقد واجه السلطان أبو البقاء خالد أيام حكمه استبدادا من مولاه منصور، هذا المولى الذي كان فيما سبق سبب في مبايعته ووصوله للحكم،

[49] الزركشي، مصدر سابق، ص78

[50] ابن قنفذ، مصدر سابق، ص179. 180.

فلقد أصبح منصور مستبدا عليه حيث قام بعزل وتولية رجال الدولة دون الرجوع للسلطان، وكان يسانده في ذلك حاجب السلطان الملقب بالمالقي.

لم تكن سيرة المولى منصور طيبة داخل بلاط الدولة الحفصية فحسب، بل كانت سيرته سيئة بين عامة الناس، ولقد زاد استبداده بعد أن تحالف مع منصور بن حمزة شيخ قبائل العرب من بنى الليل وبنى كعب، وذلك من أجل إثارة القلاقل والتضييق على السلطان والعامة على حد سواء. ونظرا لمساندة أحد شيوخ القبائل العربية له ودون إعطائه مقابل هذه المساندة نقم عليه وانقلب ضده بتحالفه مع الأمير ابى العباس احمد للإطاحة بدولة أبو البقاء خالد[51]، فسياسة المولى منصور جنى عواقبها السلطان الحفصي.

ومن مظاهر الاستبداد كذلك أنهم يبيحون لأنفسهم ولمن يساندهم القتل داخل المدن التي يحكمونها. غير أن السلطان الحفصي كان في اغلب الاحيان متيقظ لما يقومون به فسرعان ما يعالجه – إذا كان له المقدرة على ذلك – وذلك من خلال القبض على الجناة منهم مهما كانت مكانتهم، بل يجرد اصحاب المناصب من ممتلكاتهم بما فيها أموالهم ويتم إيداعهم السجن، فلقد كان منهم من مات داخل سجنه[52]. واعتقد أن ذلك له علاقة بما يتمتع به السلطان من قوة ونفوذ.

[51] الزركشي، مصدر سابق، ص105. 104

[52] الزركشي، مصدر سابق، ص147.

الخاتمة:

ومما سبق يمكن أن الوصول إلى عدة نتائج

1. لم يكن الموالي يمثلون فئة العبيد فقط بل كان منهم المرتزقة.
2. كان لسلاطين الدولة الحفصية دور في استجلاب الموالي، وذلك خدمة لهم.
3. زواج سلاطين الدولة الحفصية من نساء روميات أسهم في توطيد العلاقة بينهم وبين الموالي.
4. تولي الموالي قيادة الجيوش الحفصية داخل تونس وداخل باقي المدن الحفصية وخاصة تلك التي له موقع استراتيجي.
5. كان يحدث في بعض الأحيان صراع بين الموالي أنفسهم من أجل كسب ود السلطان الحفصي.
6. قاد الموالي الجيوش الحفصية في الكثير من المعارك الداخلية والخارجية وكان أغلبها تحقق انتصارات لصالح الدولة الحفصية.
7. تولي الموالي قيادة الأسطول الحفصي.
8. تولي الموالي إدارة المدن الحفصية سياسيا إلى جانب مهمة القيادة.
9. في كثير من الأحيان كان يثق السلطان الحفصي في الموالي من ناحية تكليفهم بالمدن أكثر من ثقته في أقاربه.
10. تولي الموالي مهمة القضاء على جبهات المعارضة للسلطان الحفصي لأن ذلك يمس نفوذهم.
11. قام الموالي بالقضاء على مظاهر الفساد المالي داخل الدولة، ومن المؤكد أن هذا يعود عليهم بالنفع.

12. أسهم الموالي في تمهيد دخول السلطان للمدن المستعصية وذلك عن طريق شراء ذمم المشرفين عليها.

13. كان للموالي دور بارز في مبايعة السلاطين وحماية أبنائهم لاسيما القصّر منهم.

14. بعد أن استفحل نفوذ الموالي داخل البلاط الحفصي قاموا بمظاهر استبدادية ضد السلاطين والعامّة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

1- ابن خلدون، عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000م.

2- الزركشي، ابي عبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماظور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966م.

3- ابن الشماع، أبوعبدالله محمد بن أحمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م.

4- العمري، ابن فضل الله شهاب الدين، تحقيق كامل سليمان الجبوري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، ج4، دار الكتب العربية، بيروت.

5- ابن القنفذ، أبو العباس أحمد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968

6- المسعودى، جميلة مبطى، المظاهر الحضارية في دولة بني حفص منذ قيامها سنة 661هـ وحتى سنة 893هـ، رسالة ماجستير، جامعة ام القري،2000م.

7- ابن منظور، لسان العرب، مج 4، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة.

ثانيا: المراجع:

1- برنشفيك، روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن13 الى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، ج1، دار الغرب الإسلامي، 1988م.

2- عامر، أحمد. الدولة الحفصية، دار الكتب الشرقية، تونس، 1972.

3- العيد غزالة، مساهمة العنصر الأندلسي في الجيش الحفصي، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 3، ع 1، جوان 2019م.

4- ابن الوزان حسن، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2 ،1983م.